فات الموعد.. ولكن لم يفت القطار!

محمود عبد المنعم مراد

التعقيب

كان الموعد هو ٢٦ مايو. كان موعدا لإنهاء المباحثات الخاصة بالحكم الذاتي للفلسطينيين. وفات الموعد، وتوقفت المباحثات. ولكن هذا الموعد تحدد في كامب دافيد. ولم تحدده السماء! وليس من الضروري أن يكون الوقف نهائيا. فليس في السياسة بدء ولا نهاية. ولكن الأمور كلها تجري في حركة مستمرة وتطور وتغير لا يتوقفان. وإذا كان موعد ٢٦ مايو قد فات. فإن قطار الحل الشامل لم يفت. ولا يزال في الإمكان أبدع مما كان.

وليس من حقنا أن نتشاءم. ولكن من واجبنا أن نفكر ونخطط. ونبحث عن البدائل وسائر الأحداث. ويكفي أن ٢٦ مايو الذي فات، شهد حادثة في إسرائيل. هي استقالة عزرا فايتسمان وزير الدفاع. وما أتجنبه هذه الاستقالة من تصدع في حكومة بيجين، سواء كانت الاستقالة بسبب ميزانية الجيش، أو بسبب تضييع فرص السلام. المهم أنها حدثت، وستلوها بالقطع أحداث أخرى، وكل الدلائل تشير إلى قرب تغيير الوزارة، وعودة حزب العمل إلى حكم إسرائيل.

وشهد ٢٦ مايو تطورا آخر، في المعسكر المقابل، أي في الجبهة العربية. إنه يتمثل في تلك التصريحات التي أدلى بها الأمير فهد والأمير عبد الله، وهما الرجلان الثاني والثالث في المملكة السعودية. ولئن كانت هذه التصريحات في مضمونها الحقيقي لم تضع حلا للمشكلة، فإنها خطوة جديدة، أو تطور جديد في نظرة السعوديين إلى الموقف، وتعبير جديد عن الجهود التي يبذلها مصر من أجل فلسطين وقضية السلام. إنها تمثل رغبة في بدء حوار مع كل من مصر وإسرائيل. وإذا كان رد الفعل في كل منهما كان خافتا، فإنه لم يكن خافيا. ولو ملت هذه البادرة بادرة أخرى أكثر واقعية، أي أكثر صراحة، لظهر عامل جديد في الموقف كله، يجعل التفاؤل واجبا في كفتي الميزان.

وفي أوروبا الغربية نشاط. والبعض يسمونه مبادرة. والآخرون يقولون إنه مجرد كلام للتجارة. وركب النافع. وشد الساط من تحت أقدام الأمريكيين. وهذا أقرب إلى النصحة والواقع. فلا يدور بخلد أحد، أن رجل الشارع في فرنسا أو ألمانيا أو النمسا يهمه مصلحة العرب أو الفلسطينيين، ولا حتى مصلحة إسرائيل. المهم عنده أن ينساب النفط هادئا منتظما من المنطقة العربية، بالقدر المقبول، والسعر المعقول، وأن تنساب منتجاته الصناعية إلى حيث المستهلكون القادرون على الدفع، مهما ترتفع الأسعار. ولا بأس عليها من ذلك. فليحاول ديسكان وهلموت حيث وسعه التشور. وليستمر أيادا لري ما الذي يمكن عمله في حلقة الحلف. الباحة منذ ثلاثين سنة عن حل.

وأمريكا لم تفقد الأمل، ولم تخفض يدها من النجدة. وهي مرغمة على الاستمرار فيها، مهما شغلتها الانتخابات ومشكلات المحتجزين في إيران، والغزو الروسي لأفغانستان. وقضايا الطاقة والبطالة والتضخم وغير ذلك من المشكلات. فالمشكلة الأولى والأهم هي مشكلة الشرق الأوسط، وستظل كذلك، لأن الشرق الأوسط هو القلب الذي يدفع بالدم، أقصد بالنفط، إلى جسد الدولة الأمريكية، والغرب واليابان. مهما تكن أطراف هذا الجسد بعيدة عن القلب بكثير من آلوف الأميال. هذا في الظاهر. أما في الباطن، فالشرق الأوسط هو الكنز الثمين الذي يزخر بالبلايين التي يحاطلها رؤساء شركات البترول، وشركات النقل البحري، وشركات صناعة الأسلحة والسيارات، وسائر المنتجات. وعندما يكون العراق على المال، فلا تستبعد أن تستخدم في العراق أفتك وسائل القتال. والريح كلها تهب في اتجاه سفينتنا. لأننا نحن العرب، الذين نملك المال والوقع، ندعك من الحق والعدل وحقوق الإنسان!

وما من قرار يتخذ بفعل عامل واحد. فالقرارات، وخاصة السياسية الكبرى، تحددها عشرات أو مئات العوامل، والذي يزيد الأمر صعوبة، أن العوامل هذه ليست ثابتة، ولكنها متغيرة دوما، ولكننا بعد نضيق النظر، نستطيع أن نقول إن معظم العوامل الإيجابية في صالحنا، ويمكن أن يزيدها تفوقا ورجحانا، أن نتفاهم نحن العرب فيما بيننا. ولن نستطيع أن نتفاهم جميعا، لأن بعضنا لا يملك قراره، فقراره في موسكو، وموسكو لا تريد الحل. فليكن سعينا مع المعتدلين، أو ليكن سعي المعتدلين لحسابنا. وليس بين الأخوة فرق.

وإذا كنا نقول للروس إذا خطوتم لحسابنا خطوة فسنخطو نحوكم خطوتين، فقد حان لنا إذن أن نقول للمعتدلين من الإخوة العرب، إذا خطوتم نحونا خطوة، فسنخطو نحوكم ثلاث خطوات. ولن يكون ذلك ضغطا منا. بعد أن اجتزنا جميع العقبات التي وضعوها في الطريق، وها نحن نواصل السير.

وإذا كان الموعد قد فات، فإن القطار لم يفت. ولا يزال قادما في الطريق!!

برنامج ناجح

اتصل في تليفونيا الدكتور عبد الأحد جمال الدين، رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون، بشأن ما كتبته في الأسبوع الماضي حول البرنامج النافع الجاد الشائق الذي يدور أسبوعيا حول قضايا الاقتصاد والتموين. وكنت قد أشرت إلى أهمية هذا البرنامج، وأسلوبه الجديد في إشراك المواطنين بمكالماتهم التليفونية، سائلين ومقترحين ومستفسرين.

وقال لي الدكتور عبد الأحد، ردا على ملاحظاتي، إنه هو والقائمين بالتليفزيون يحاولون دائما سد كل نقص، وإلقاء أي عيب، وتطوير البرنامج بحيث يصبح أعلى وسيلة عليا للبحث الجاد مع المشاهدين والرد عليهم. وأقول، إنني عندما تابعت الحلقة الأخيرة من البرنامج، أحسست فعلا بهذه الرغبة الصادقة في الإجادة والتطوير. فقد كانت المناقشات أكثر نظاما، والحد الفاصل بين مدير الندوة ومقدم البرنامج، أكثر وضوحا، ومستوى المتصلين بالبرنامج أكثر وعيا ونضجا. وهذا في رأيي أسعد وحدي المهم لمتابعة هذا البرنامج، وما يجري فيه من نقاش وبحث لأخطر القضايا التي نواجهها في هذه المرحلة.

فقد تضمنت المكالمات التليفونية التي تلقاها البرنامج، أسئلة من رجال دولة كبار وأساتذة متخصصين، وأفراد من مختلف الطبقات والفئات، ولم يعد البرنامج نهبا يشبع فيه كلام الشرح والبسطاء من اللاهين. وقد تضمنت الحلقة الأخيرة سؤالا هاما وجهه التليفون الأستاذ محمود أبو وافية، وإن لم يظفر بجواب عنه. وكان السؤال هو: كيف يمكن للحكومة الجديدة أن توفق في سياستها الضريبية، بين رغبتها في الحصول على الموارد

استقالة عزرا فايتسمان وتصدع حكومة بيجين ستلوها بالقطع أحداث أخرى

الكافية . ويجد معها لتشجيع الاستثمار وحفز المستثمرين على العمل بتخفيف وطأة الضرائب عن كواهلهم .

والحق أقول .. إنني لم أصب الجواب الشافي لهذا السؤال الهام . وليست أدعي لنفسي الحق في الإجابة عليه ، لأنه لم يكن موجها لي . كما أني لا أدعي القدرة على ذلك ، لأني لست من المتخصصين في الاقتصاد بوجه عام ، والضرائب بوجه خاص . ولكني أعجبت بالسؤال ، وبصاحبه الذي لم يدخر أن يدعى فلانا يشارك الجماهير الاستماع والاشتراك في برنامج تليفزيوني هام ، وهو عضو بمجلس الشعب ، يستطيع أن يسأل على المستوى الرسمي المعاد .

وقد تفق البرامج رغبة المكونين في أن تعد وقته ليشمل الشهرة بكاملها ، بدلا من ساعة واحدة من الزمان . وهذا يثبت أن الجديد لا تعارض مع الدقة والتشويق والمتعة ، إذا كانت عرض هذه الأمور الجادة مما يحفز المشاهدين إلى الاستماع والتتبع والمشاركة . بفضل الأسلوب الطريف المشوق والإخراج الجيد الملائم لطبيعة الموضوع .

هل يقتلون الحمير ؟ !

وفي حلقة سابقة من هذا البرنامج التليفزيوني الناجح ، كان الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد يتحدث عن ارتفاع أسعار الخضر والفاكهة ، ويشكو من أن ملاك الأراضي الزراعية الخضراء ، تذهب هباء بفضل مليونان من الحمير . ذلك أن هذه المساحة الشاسعة من الأرض توزع كل عام بالتبسم الذي يأكله الحمير وغيرها من الدواب المنتشرة في الريف .

ولو كنا نستخدم الميكنة الزراعية ، لوفرنا هذه المساحة الشاسعة مما يفيد الناس في غذائهم ، بدلا من ضياعها في إطعام الحمير .

وكلام السيد نائب رئيس الوزراء ، معقول في ظاهره ، ولكنه في واقع الأمر مردود عليه . وليست أدري ما إذا كان الدكتور عبد الرزاق قد عاش هناك في الريف أم في الخضر ، ولكني أنا وغيري من الملايين الذين تربوا في القرى ، فرحوا من هذا الكلام ، لا وألف بالحمير ، بل إدراكا لفائدتها وفضلها على الفلاح الذي يجعل الحمار فردا من أسرته ، يعايشه في منزل واحد ، ويرعاه كأحد أبنائه . ويداويه إذا مرض ، ويكفل له الطعام إذا جاع . والميكنة الزراعية التي تحل محل الحمير ، لا تصلح إلا في الأراضي الشاسعة والملكيات الواسعة ، ذات الطرق المرصوفة .

الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد يشكو من أن ملاك الأراضي الخضراء تذهب هباء بفضل الحمير

التي تصلح لسير الجرارات والسيارات وغيرها من وسائل النقل والمواصلات . أما في الريف المصري ، الذي تنتشر فيه الملكيات الصغيرة ، من بضعة قراريط إلى بضعة فدادين ، فلا يمكن للفلاح أن يستغني عن الحمار . فهو أولا أداته الوحيدة للانتقال من المنزل إلى الحقل ، أو إلى السوق ، أو إلى القرية المجاورة لزيارة الأهل ، أو للمشاركة في الأفراح أو العزاء . والحمار هو الوسيلة الوحيدة لنقل السماد والبذور ، ونقل المحصول من الحقل إلى البيت أو إلى السوق أو إلى الطريق العام . وليس من العسير علينا أن نشرح للفلاحين باستخدام الجرارات في الانتقال وتكليم لن يستطيعوا استخدامها في طرق ضيقة معظمة بالترب والطين . ولن تحل السيارة محل الحمار في نقل المحصول من الحقول إلى الأسواق . ثم إنا إذا كنا نوفر الأرض المزروعة بالبرسيم من أجل الحمير ، فسوف نجد أنفسنا أمام مشكلة توفير الطاقة المستخدمة في الآلات الحديثة والسيارات والجرارات . وتوفير الأيدي العاملة المدربة على تشغيلها وصيانتها .

إن الحمار جزء لا يتجزأ من الأسرة المصرية الريفية . لا يمكن الاستغناء عنه ما دامت الملكية مفتتة بهذا الشكل الصارخ الذي نراه . ولقد يكون من الأجدى ، بدلا من الدعوة إلى قتل الحمير ، أن ندعو إلى قتل الكلاب الضالة والقطط والفئران والعصافير . وكلها تستهلك قدرا كبيرا من ثروتنا الزراعية بلا مقابل على الإطلاق . وقد صدرت الصين الشعبية إلى ذلك ، وحققت منه وفرا كبيرا في المحصول .

أما الحمير فاتركوا ، وليعش معها الفلاحون المصريون في أخوة ومودة ووئام . وليس هذا الكلام من قبيل الرفق بالحيوان ، بل إنه الرفق بالإنسان المصري الغلبان !

التهنئة والعزاء

مازلت حتى اليوم ، بعد أن انقضى على التغيير الوزاري الأخير أكثر من أسبوعين ، أطالع ما يساوي صفحة كاملة من صحف اليومية ، لا تتضمن سوى التهنئة الموجهة إلى الوزراء والمحافظين الجدد ، أو القدامى الذين بقوا في مناصبهم . وأنا أطالع أحيانا بعض الصحف العربية والأجنبية ، ولكني لا أذكر أني وجدت هذه الظاهرة في بلد آخر غير مصر .

قد أسرعنا إلى تهنئة كل من تولى منصبا كبيرا ، وما أسرعنا في نسيان من تولى مثل هذا المنصب . وليت أريد أن أقلل على أغلبية الناس بأن أصف هذه العادة الموروثة بأنها نفاق ، وإن كانت كذلك . ولا أستطيع بحال أن أتصور جريدة التيمس البريطانية ، وقد أفردت صفحة أو صفحتين من صحائفها كل يوم ، لنشر إعلانات التهنئة للسير ماوجريت تاتشر بمناسبة نجاح حزبها في الانتخابات وتوليها رئاسة الوزارة . كما لا أستطيع أن أتصور صحيفة النيويورك تايمز ، أو الواشنطن بوست أو الفيلادلفيا تريبون ، قد فعلت ذلك عندما أسند الرئيس كارتر منصب وزير الخارجية إلى السيد مصكي (وأظن هذا هو النطق السليم لاسمه) . إنها طبعا لو حدثت لكانت مهزلة . وليس معنى هذا أن مسز تاتشر لم تلق التهنئة من أحد ، أو أن السيد مصكي كذلك الناس جميعا عندما تولى الوزارة . ولكن التهنئة هناك لها أسلوب آخر ، وهدف آخر ، غير مجرد النفاق والتظاهر .

ولا تقتصر التهنئة التي تشغل صفحات بكاملها من جرائدنا اليومية ، على الوزراء والمحافظين ومن دونهم ، بل تتعدى ذلك إلى نجاح عملية جراحية لفلان . أو نيل شهادة القبول بالمدارس الإعدادية ، أو بكالوريوس من الجامعة أو العودة بالسلامة من الأرض المقدسة أو غير ذلك من مناسبات التهاني العديدة . وأنا لا أعترض على أن يهنئ الناس بعضهم بعضا ، ولو لمجرد تهنئتهم سالمين من أعدائهم إلى بيوتهم . ولكني أود ألا تنشر هذه الرسائل الخاصة في الصحف اليومية ، لأنه لا شأن لي بأن فلانا أنجب مولودا جديدا ، ولا فلانة التي نجحت في السنة الثانية الإعدادية . وقد بلغ بي القنوط والتعجب بهذه الإعلانات التي تكلف الناس كثيرا من أموالهم ، أني رأيت ذات مرة صورة شيخ شاب معمم ، في باب الاجتماعيات . فحسبته إعلانا عن مأذون جديد يجيد قراءة القرآن الكريم . ولكني فوجئت بأن الإعلان يهنئه لله على حصوله على شهادة العالمية الأزهرية !

والناس أحرار كما قلت . في أن يعبروا عن مشاعرهم بما يريحهم للآخرين من حب أو مودة . أو تظاهر بها . ولكن الأجدر أن يكون بين الطرفين مباشرة ، بالتليفون أو بالبرق أو الزيارة ، دون عرض الموضوع على جماهير القراء بلا ضرورة .

أما عن إعلانات الوفاة ، فحدث ولا حرج . يكتبون اسم المتوفى ، وأبيه وأمه . وإن كان هو قد جاوز الخامسين من عمره . ثم يثنون اسم الزوجة ووالديها ، ثم الأبناء والبنات ، وزوجاتهم وأزواجهن ، ثم الإخوة والأخوات ، وأبنائهم وأبنائهن ، وبناتهم وبناتهن ، ثم أولاد العم والخال والعمة والخالة ، إلى آخر شجرة العائلة المتعددة الفروع .

وأقسم بالله أني قرأت نعيا لشخص أعرف أسرته ، فقرأت من بين أبناء شجرة العائلة ، اسم رضيع لم يبلغ من العمر أربعة أشهر ، كانوا سيجنّ أقرانه وأصحابه من مهادهم ليشتركوا العزاء للأسرة في السرادق المقام بميدان التحرير .

وآه من عبارة ، سقط مهورا .. لقد بكاك الحي بشر ، حتى بقالة الحريدة القارب المنزل وأصهاره ، كل يبحث عن اسمه ووظيفته في النعي ، عبارين صفحا عن الحزن الذي لم بالأسرة . ولابد أن يكون كاتب النعي قد نسي أو تناسي قريبا للأسرة من بعيد ، أو صهرا لأحد أفرادها ولي عز النكاة الذي يعقب الوفاة . يكثر الجدل حول ما نشرته الصحيفة من نعي ، حتى لو بلغ عمودا كاملا . ويشتد العتاب والاحتقار ، ولا يجد أهل الميت بدا من أن ينشروا في اليوم التالي ملحقا للنعي يبدأونه بقولهم ، سقط مهورا .. » .

وكانت إسرائيل فيما مضى ، ولعلها لا تزال حتى الآن ، تتبع ما تنشره صحفها في باب الوفيات لتعرف أبناء الناس ووظائفهم وارتباطاتهم العائلية . وكذلك يفعل المطلوبون – من عملاء أو لقضاء الوقت – عندما يقرأون هذه الإعلانات بنعي ، ليعرفوا أن فلانا الذي يشغل منصب رئاسة مجلس إدارة الشركة ، له ثلاثة أو أربعة من أسرته يعملون فيها ، أو أن رئيسا لإحدى الجامعات يظهر من النعي المنشور أنه له أربعة أو خمسة من أقاربه ، يعملون معيدين أو مدرسين بمختلف الكليات . وهكذا يكتشف المستور ، وتظهر الخفايا .

وكل هذا ضرب من التظاهر الذي ينبغي أن يقف عند حد . ويجب أن نلتزم بالإيجاز الشديد في نشر هذه الأنباء المؤسفة ، حتى تتسع صفحة واحدة لمئات من الأموات يتوفاهم الله كل يوم .

أما أن تطغى هذه الوفيات على صفحتين كاملتين من الجريدة اليومية كل صباح ، فذلك أمر غير محتمل .